تعليم العربية وأُطر الكفاءة اللغوية العالمية

Teaching Arabic and global proficiency frameworks

د/ محمود العشيري

الكتاب: **الكفاءة اللغوية؛ نماذجها وأطرها**

المؤلف: د. إسلام يسري الحدقي

الناشر: أكدم للنشر AKDEM PUBLISHING، اسطنبول، تركيا

الطبعة: ط1، أكتوبر 2021.

يقدم هذا الكتاب لأول مرة في العربية تعريفًا شاملًا وموجزًا في الوقت نفسه لأهم نماذج الكفاءة اللغوية وأُطُرها العالمية، سواء من حيث تطورها التاريخي أو تعالقها المفاهيمي أو فك اشتباك مصطلحاتها الأساسية، بالإضافة إلى رصد أهم المحاولات العربية في هذا السياق؛ بما يجعله مدخلًا ضروريًّا لأي مهتم بتطوير تعليم العربية لغير الناطقين بها.

ويُقْصَد بـ"الكفاءة اللغوية" قدرة المرء على استخدام اللغة، وقدرته على تحقيق التواصل الفعال من خلالها وإنجاز ما يريد أو يُطْلَب منه من أفعال. وتُفْهَم هذه الكفاءة وتُتَصَوَّر عبر أوصاف نظرية شاملة، مُجَرَّدة نِسْبِيًّا، لما يعنيه "أن تكون قادرًا على التواصل باللغة"، وتمثل هذه الأوصاف "نماذج" لهذه المحاولات العلمية التي تبتغي وصف ما نعلمه عن "معرفة اللغة" إلى جانب العوامل الكامنة المتعلقة بالقدرة على استخدامها، وفهم الحالات المحددة لهذا الاستخدام.

ويتطور الأمر بـ"نماذج الكفاءة اللغوية" لِيُبْنَى عليها ما نسميه بـ"الأُطُر المرجعية للكفاءة اللغوية"، والإطار المرجعي وصفٌ في شكل مقياس متدرج المستويات لما يستطيع المتعلم فعله باللغة في مجالات مهاريَّة مختلفة؛

كمهارات الاستماع والتحدث والقراءة والكتابة، أو في كفايات واستراتيجيات وأنشطة مختلفة. وتقدم هذه الأُطُر واصفات لمستويات الكفاءة اللغوية المختلفة التي يمكن التعرف عليها وقياسها في تحديدات دقيقة، سواء كانت عامة أو تفصيلية، لتصف مستوى الكفاءة أو نوع الأداء اللغوي للمرء عند درجة محددة أو مستوى معين.

وتعين هذه الأُطُر اللغوية على تحديد أهداف التعلم ووصفها بوضوح وإيجاز وكذلك الحكم على المقدرة اللغوية؛ فتستكشف الطريق إلى كيفية بلوغها والتثبت من إحراز تقدم في تحقيقها. ويُنْتَظَر من الأُطُر أن تجيب عن أسئلة من قبيل: ما الذي ينبغي على الدارسين فعله باللغة؟ وما الذي يتعين عليهم أن يتعلموه لكي يصبحوا قادرين على استخدام اللغة المستهدفة لبلوغ أهدافهم؟ وهي أمور كما تعني معلمي اللغة ومتعلميها تعني أيضًا بالقدر ذاته مديري البرامج وواضعي الاختبارات ومؤلفي الكتب التعليمية وناشريها وكل من له صلة بالتخطيط لتعليم اللغة. وتَشارُك مثل هذه الأُطُر يعين- بلا شك- على العمل بفهم ومثابرة لإنجاح رسالة تعليم اللغة فضلًا عن أنه يساعد كل طرف على فهم أهدافه على نحوٍ أوضح وتقديم منهجه للآخرين بوضوح وترابط ومنطقية. وكذلك تضمن الأُطُر اللغوية تيسير التفاهم والتعاون بين معلمي اللغة ومؤلفي المناهج وواضعي الاختبارات على مستوى المؤسسات التعليمية المختلفة في الدولة الواحدة أو في الدول المختلفة. هذا بالإضافة إلى وضع أسس واضحة وراسخة لاعتماد المؤهلات اللغوية بين المؤسسات المختلفة على نحو متبادل وبين كل الدول.

والكتاب يقرب هذه الأطر إلى المهتمين بتعليم العربية، وينظم المعرفة بها في تعاقبها التاريخي وتطورها المعرفي، ويقدم مفاتيح تعين على قراءتها والربط بينها وبين غيرها، وأيضًا يعين على تمييزها عن غيرها؛ فيبَيّن مثلًا كيف أن الإطار المرجعي الأوروبي المشترك للغات لا يستخدم مصطلح "المهارات اللغوية" المشهور، ولا يقسم المهارات اللغوية كما هو معتاد في أُطُر أخرى وفي الأدبيات التربوية العربية إلى استماع وتحدث وقراءة وكتابة، وإنما يتحدث عن أنشطة تواصليَّة؛ تقوم على الاستقبال والإنتاج والتفاعل والتوسط بالترجمة والتفسير والشرح، وفي إطار هذا نتكلم ونسمع ونكتب ونقرأ ونترجم ونشرح ونلخص ونعيد الصياغة... ولهذا ينظر الإطار الأوروبي إلى استعمال اللغة كأنشطة استقبال، وإنتاج، وتفاعل، ووساطة. كما يبين على سبيل المثال كيف أن الترجمة العربية للإطار المرجعي الأوروبي المشترك للغات لم تفرق بين Competence التي تترجم بـ"الكفاية" وProficiency التي تترجم بـ"الكفاءة"، وأنها ترجمت كلا المصطلحين بـ"الكفاءة" (الحدقي، ص79)، وهو مما يرشد القارئ العربي إلى الانتباه إلى بعض مواطن اللبس وسوء الفهم في ترجمة هذا العمل العلمي المهم.

يقوم الكتاب على العرض والشرح والتلخيص لما يقدم من نماذج وأُطُر ثم يُرْدِف كُلًّا بتعليق نقدي يأتي في نقاط تفصيليَّة، ويتَّبِع هذا في كل الفصول كما يتبعه في جميع المباحث، ويفك اللَّبس بين العديد من المصطلحات؛ سواء بإيرادها في أصلها الإنجليزي أو بتعريفها أو شرح مفهومها أو تتبع تطورها وبيان وجوه استخدامها، أو بكل ذلك معًا. وفي سبيل ذلك يقدم عددًا وافرًا من الأشكال والجداول التي قد تتصدر المبحث لتقدم خارطة لما سيتم عرضه أو تُزَيَّل بها بعض المباحث لتلخص ما تم عرضه في صورة بصرية، وعادة ما كانت أشكالًا وجداول مركزية في النماذج والأُطر اللغوية التي يعرض لها.

وكما صِيغَ هذا الكتاب بقلم المؤلف الكاتب صِيغَ بنبرة المحاضر المتكلم والمدرب الشارح؛ فجمع بين التأليف المسترسل، وبين صِيَغ العرض التقديمي؛ القائم على التقسيم والتفريع والعرض الموجز الدقيق في نقاط متدرجة وبنود تدعمها الأشكال والجداول، وجمع إلى ذلك أيضًا حضور لغة التفاعل الشفوي الحية؛ ليس فقط على مستوى شكل التأليف ولكن أيضًا على مستوى لغة الكتابة واستحضار القارئ متوجهًا إليه بضمير المخاطَب، من قبيل: "سَتُلاحِظ أنَّ...، وسوف تجد كذا وكذا..، ويمكنك أن...، وفي ختام الكتاب ستصل إلى نتيجه مهمة وهي أن.."، أو بطرح الأسئلة عليه ويتولي الإجابة نيابةً عنه: "والسؤال هنا:... والإجابة هي: نعم ولا؛ نعم لأن... ولا لأنَّ...".

ويأتي الكتاب في فصلين؛ يتضمن الأول سبعة مباحث، ويتضمن الآخر ثمانية، يتقدم الفصلين مقدمة ومدخل يعرض فيه لأهم مصطلحات الكفاءة اللغوية. ثم يعرض في الفصل الأول الذي يخصصه لنماذج الكفاءة اللغوية أهم هذه النماذج مفضلًا عرض المؤثر منها على نحوٍ من التفصيل على عرض عدد كبير منها على نحوٍ مختصر؛ ومن ثَمَّ يعرض لنموذج "لادو" (1961)، و"كارول" (1961، 1968)، ونظرية الكفاية التواصلية لـ"هايمز" (1972)، ونموذج الكفاية التواصلية لـ"كانال" و"سوين" (1980)، ثم نموذج "كانال" المعدل (1983)، ثم نموذج "بكمان" (1990)، ثم "باكمان" و"بالمر" (1996)، ثم النموذج التربوي للكفاية التواصلية "سيلس- مورسيا" (1995) ووصولًا إلى "نموذج الكفاءة التواصلية للمعايير اللغوية الكَنَديَّة"، فالإطار المرجعي الأوروبي المشترك لاستخدام اللغة" (2001).

ويعرض في الفصل الثاني لأهم الأطر العالمية للكفاءة اللغوية؛ كـ"مقياس المائدة المستديرة" (ILR/FSI) الصادر عن معهد الخدمة الخارجية التابع للإدارة الأمريكية في أول نماذجه قبل أكثر من ستين عامًا، ومازال يستخدم حتى الآن عبر نماذجه المطورة في وصف الكفاءة اللغوية في حوالي 70 لغة، تُدَرَّس وتُخْتَبَر من قِبَل

الوكالات الحكومية الأمريكية. كما يعرض لـ"توجيهات المجلس الأمريكي لتعليم اللغات الأجنبية" (ACTFL)، ثم "الإطار المرجعي الأوروبي المشارك للغات" (CEFR)، ثم يتطرق إلى "المعايير اللغوية الكندية" و"الإطار المرجعي لحلف شمال الأطلسي" ويعرض أيضًا لـ"المعايير الاستراليَّة". ثم ينهي هذا الفصل بمبحث يستعرض فيه التجارب العربية لبناء "إطار مرجعي عربي".

وبعد أن يعرض المؤلف لأهمها مع تخصيص كل محاولة بعرض شامل وتقييم مستقل كما يفعل في سائر المباحث، يقدم تقييمًا عامًّا للمحاولات العربية، ويرى أن أغلبها في الحقيقة هي مسودات قيمة يمكن البناء عليها، ويأخذ عليها جميعًا أنها كانت جهودًا فردية، حتى وإن صاغتها مجموعة أو نشرتها مؤسسة، كما أنها لم تذكر الجديد الذي تقدمه وتنفرد به مما ليس موجودًا في الأُطُر العالمية، كما أنها جميعها تجنَّبت دائمًا الأسئلة الصعبة، وتعاملت وفق استراتيجية "فن الممكن"؛ فتجنبت أسئلة من قبيل: هل سيكون هذا الإطار المنشود للغة العربية بوصفها لغةً أجنبية إطارًا للعربية فحسب أم سيكون لكل اللغات الأجنبية التي تُدَرَّس في العالم العربي؟ وإذا كان خاصًا بكل اللغات فما رأي القائمين على تعليم اللغات الأخرى في العالم العربي؛ تعليمها وقياسها، وإن كان خاصًا بالعربية وحدها فسوف تتعدد حينئذٍ الأطر التي تستخدم لتقييم اللغات الثانية داخل النظام التعليمي الواحد، فضلًا عن مشكلات معادلة تقييم نتائج الاختبارات بين العالم العربي وسائر دول العالم، وكيف ستتم أيضًا معادلة هذا الإطار مع الأطر العالمية الأخرى؟ وماذا عن المعارف التي سيستند إليها؟ هل سيستند هذا الإطار العربي إلى نموذج عربي للكفاءة اللغوية أم سيعتمد أحد النماذج العالمية؟ أم أنه سيبني نموذجه الخاص؟ وهل ستكون الواصفات الجديدة المستهدفة كافية لجعل هذا المنتج الجديد إطارًا للكفاءة اللغوية؟ وما المنهجية العلمية التي سيتبعها للتأكد من معيارية واصفات الإطار؟ وفي كلٍ ما الجهة التي سترعاه والجهات التي ستموله وستضمن استمرارية العمل عليه وتطويره؟ ومن سيتحمل عبء اعتماده عربيًّا على الأقل ويروّج له عالميًّا؟

أسئلة كثيرة يطرحها المؤلف على من يفكر في التصدي لإطار عربي، تمثل الإجابة عنها خطوات جادة على طريق إنتاج مثل هذا الإطار أو تطوير التفكير حوله.

وعلى الرغم مما يبدو أنه نوع من الحرج من جراء العاطفة الدينية أمام دعاوى حماية "الهوية" والحفاظ على خصوصية العربية، التي عادة ما يقرنها معدو المحاولات العربية لأطر الكفاءة اللغوية بالقرآن الكريم بوصفها "لغة القرآن"، دون أن يحددوا تمامًا وجوه هذه الخصوصية أو حدودها، يرى معه المؤلف أنه: "قد

يكون من الضروري بناء إطار مرجعي عربي، احترامًا لمكانة العربية وتقديرًا لها" (الحدقي، 2021، ص239)، وكأنَّ الاحترام والمكانة والتقدير مسوغات كافية لمثل هذا التوجه، على الرغم من ذلك لا يفوته أن يقدم الحل العملي في ظل الاحترازات والتساؤلات الكثيرة التي قدمها، وفي ظل خبرته الواسعة بالأطر العالمية ومعرفته بوجوه جودة بعضها؛ كدقة صياغتها وإحكامها ومرونتها وعمليتها وترابطها ومنطقيتها وانفتاحها وديناميتها وسهولة استخدامها؛ وطابعها المؤسساتي الذي يرعاها ويخدمها ويطورها نظريًّا وتجريبيًّا، في الوقت الذي لا يرى فيه أننا مؤهلين الآن، وفي ظل آليات العمل القائمة وطبيعة إنتاجنا العلمي الحالي، لاصدار مثل هذا الإطار العربي؛ نراه يطرح الحل العملي الأوفق الذي يقوم على الاستفادة من الأطر العالمية الحالية وتكييفها عربيًّا على يد النابهين من الخبراء والتربويين واللغويين لانجاز إصدار عربي خاص، قائم على أحد الأطر العالمية، وهو إنجاز لو تم كبير، وسيكون نقلة علمية عظيمة في حقل تعليم العربية.

وعلى الإجمال فـ"الكفاءة اللغوية؛ نماذجها وأطرها" كتاب مفيد لكل مهتم بتعليم العربية للولوج إلى أُطُر تعلم اللغات التي تتخصص في تعليمها بالأساس بوصفها لغةً/لغات ثانية، إلا أنه مفيد أيضًا للمهتمين بتعليم العربية لغةً أولى؛ من خلال فتح الطريق أمامهم إلى عوالم مختلفة منظمة ومتكاملة من الأهداف والمفاهيم والكفايات والأنشطة والاستراتيجيات، لا شك أنها ستوفر على القائمين على تعليم العربية لأبنائها عقودًا من التجريب.